

## صور من مجتمع

### القاهرة في العصور الوسطى (\*)

بقلم

دكتور سمير عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يمتد تاريخ القاهرة في العصور الوسطى من سنة ٩٦٩ م حتى سنة ١٥١٧ م .  
وفي هذه الحقبة التى قاربت خمسة قرون ونصف تماقت على حكم القاهرة ثلاث دول  
كبيرة لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هى دولة الفاطميين ، ودولة  
الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

وللمعروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائماً بنوع من الثبات والاستقرار وبطء  
التغيير بخلاف ما عليه الحال في الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لآ نرى وجها للمقارنة بين الأوضاع  
السياسية والاقتصادية السائدة فيها ، وتلك التى كانت سائدة أيام الفاطميين  
أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والمعادن  
والتقاليد التى نحرص عليها اليوم والتي حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين  
والايوبيين والمماليك .

---

(\*) محاضرة أقيمت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ضمن موسم القاهرة الثقافي  
بمناسبة مرور ألف عام على إنشاء مدينة القاهرة - وذلك مساء الاثنين ٢٩ إبريل ١٩٦٩  
بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هي أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال العصور الوسطى ، رغم تماقب ثلاث دول عليه في تلك العصور . ولا قصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة في تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام - الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول الثلاث ظروفها الخاصة السياسية والاقتصادية وربما العقائدية وللذهبية التي عكست صورتها على حياة العاصمة وتركزت أثرا في مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين في بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول للشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هي وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا في مجتمع القاهرة طوال العصور الوسطى ، بل ربما العصور الحديثة . وترجع بعض هذه الأصول المشتركة إلى ظروف البيئة التي تمتد بسيدها في بطون التاريخ ، في حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربي الاسلامي ومساهده من تقاليد اجتماعيه مشتركه في جميع انحاء الوطن الاسلامي الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا ينبغي في هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية في القاهرة طوال العصور الوسطى أو ذلك التقدر المشترك من التقاليد والمعادن التي كلفت الحياة العامة في القاهرة في تلك العصور ، بقدر ما تمنى الإشارة إلى الطابع الخاص للحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر كل دولة من الدول الثلاث التي تعاقبت في حكم مصر في العصور الوسطى ، مع بيان العوامل التي تحكمت في تشكيل الحياة الاجتماعية بالقاهرة أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل أهم ما يميز الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر الخلفاء الفاطميين للبالغة في أحياء الاعياد واللوازم ، وهي ظاهرة تستحق منا وقته خاصة لتعليقها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفاء الفاطميين - وخاصة في العصر الأول لتلك الدولة - كان

الدافع الاساسى لتلك الاسراف وتلك اللبالة ، ولسكتنا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لا يقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا في إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثلك أسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض ألوان الطعام وبعض المعادات والتقاليد للارتبطة بالاعياد والحفلات والتي ما تزال قائمة في مجتمعنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه الظاهرة ؟ ؟

أن الأمر في نظرنا لم يكن مجرد ثروة وفرة نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يحدوا بحالا لتبديدها سوى اللبالة في إحياء الحفلات ومد الاسمطة واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر - من وجهه نظرنا - أبعد من هذا بكثير . لقد قامت الدولة الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد في أرض لاتدين بهذا للبدا ولاتأخذ بذلك المذهب . وكان لابد للنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة في تلك المصور . وهل هناك طريق للدعاية لاولئك الحكماء الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والحبور يحمل للناس - وخاصة في العاصمة - لا يرون في ذلك التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم و بطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الاعياد ولقوا كب والاسمطة سبيلا للدعاية والنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولأهم ومحبتهم وأعجابهم بالنظام الجديد . هذا في الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس من طريق نشر مبادئ المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على اللبالة

في إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجري وعيد مولد النبي (ص). ومنها ما أدخله الفاطميون في مصر مثل مولد علي بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضي الله عنهم. وكذلك الاحتفال بليلالي الوقود الأربع وهي أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه، فضلا عن الاحتفال بعيد الندير - أي غدير خم - وهو المكان الذي يقول الشيعة أن النبي (ص) ولي عليا بن أبي طالب عهده فيه وجمعه منه بمنزلة هارون من موسى. أما يوم عاشوراء - وهو عاشوراء المحرم - وقد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق، ويخرج أهل القاهرة إلى الطرقات ليكون وينوحون حزنا على الحسين بن علي الذي استشهد في ذلك اليوم. وكان يعد فيه سباط أطلق عليه اسم سباط الحزن، لا يقدم فيه إلا خبز الشعير والعدس والملحاحات والجبن ونحوها. وهناك من الأعياد التي شهدت القاهرة في العصر الفاطمي ما اتخذ صبغة قومية مثل عيد جبر الخليج - أي وفاة النيل - وعيد النوروز - وهو عيد الربيع -، فضلا عن خيس العهد وهو أحد الأعياد المسيحية، يأتي قبل الفصح بثلاثة أيام، واحتفل به الفاطميون مشاركة للنصارى في أعيادهم<sup>(١)</sup>.

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا في مواكب ضخمة يشقون شوارع القاهرة وسط أفراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة. وبعض هذه اللواكب كانت تسمى للوأكب العظيم، وتتم في أول العام، وأول رمضان، والجمع للثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدي الفطر والاضحى، وجبر الخليج. أما اللواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندي أسم اللواكب المختصرة، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم، ويكون ذلك عادة أيام السبت

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء<sup>(١)</sup> . وفي بعض هذه اللواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجبال ،  
وعليها الموادج للزركشة تنهادي في شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد  
كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، في حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور  
على جانبي الطريق<sup>(٢)</sup> .

واشتهرت أعياد القاهرة في عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يمد  
من أسطى صارت مضرب للثل في التاريخ . واشهر الاسمطة التي كان يقيمها الخلفاء  
الفاطميون هي تلك التي كانت تمتد في أول العام الهجري وفي مولد النبي (ص)  
وفي غرة رمضان وفي عيدي الفطر والاضحى . ويكفي للوقوف على ضخامة هذه  
الاسمطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن  
السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف<sup>(٣)</sup> . ويذكر  
القلقشندي أن السباط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد  
وعشرون خروفا ، وثلاثمائة وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمام ، هذا عدا  
الفطائر والحلوى<sup>(٤)</sup> . وبعد أن يفتح كبار القوم السباط ، يباح لامة أهل القاهرة ،  
فيا كلون ملاء بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ما تبقى وييمه في الأسواق . وفي مولد  
النبي (ص) كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع في الأزهر على عامة  
أهل القاهرة<sup>(٥)</sup> .

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القاهرة ، عن طريق

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٢) نامري خسرو ، ص ١٣٦ - ١٤٢ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة للفاطمية طالما هي في يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا في وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، أقض عنها كثيرون ، وهذه هي سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين اختلفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية في القاهرة طوالها بالاسراف واللبالسة في أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة للماليسكية . ولكن دولة بني أيوب أحاطت بشأنها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية في وقت صار الصليبيون بالشام أشد مايكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس في الشام فحسب ، بل أيضاً في مصر ، فضلاً عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتقلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الايوبي لمباشرة حياة الترف فإن المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة المدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفد آخر درهم في خزانة سلاطين بني أيوب .

وبينا نقرأ في مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلي فور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة للعزدين الله ، إذاً بن شداد يروي عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة ومبسرة (١) » . وبينما يحكي القرظي عن الخليفة للمز لدين الله الفاطمي أنه انجب

---

(١) ابن شداد : النواذر السلطانية ، ص ٤٤ .

بنتين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعائة ألف دينار من الذهب،  
والأخرى عبدة وقد تركت عددا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على  
أكياس الزمرد والدنابير والثياب الفاخرة (١) ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن  
الجهاد استنفد كل دينار في خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين  
درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب (٢) .

ووصل الخليفة للمزدين الله الفاطمي إلى مصر ، فكان أول ما شرع فيه هو  
تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات وللبالغة في فخاما  
للواكب . . . أما صلاح الدين الأيوبي فكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور  
في مصر هو بناء قلعة الجبل وتشيد سور القاهرة واتخاذ كافة الاجراءات لحماية  
البلاد والعباد من خطر العدو الصليبي .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصر بني ايوب صارت  
مجدبة كل الجذب ، خشنة كل الحشونة ، خالية تماما من مظاهر الأفراح واليسالى  
لللاح . إذ الواقع أن الايوبيين حافظوا على أحياء الاعياد الدينية وغير الدينية ،  
ولكن في غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقريزى عندما يشير إلى بعض  
الاحتفالات في العصر الايوبي لا يتعرض لالوان الاباحية وصنوف المنكر التي انتقدتها  
في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في المصريين الفاطمي والمالكي (٣) . ذلك  
أن الايوبيين اقتصروا في الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها باعياد الشيعة ،  
في حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال للذهب السني محل للذهب الشيعي .

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النواحر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلاً أن عاشر المحرم - وهو يوم عاشوراء - كان يوم حزن عند الفاطميين ، تنلق فيه الأسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب (١) . وهكذا لم تحرم القاهرة في عصر الايوبيين من أحياء الحفلات والاعباد ، ولكن في غير تبذل أو إسراف ، فلنسمع عن الاسمطة السلطانية في العصر الأيوبي ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة في القاهرة كان السلطان صلاح الدين الأيوبي نفسه ، ولكننا لانسمع عن الاسراف والبالغة اللتين انصفت بهما الحفلات وللواكب الفاطمية أو المماليكية (٢) .

حقيقة أننا نجد في المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالنوا أحياناً في إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر (٣) . كذلك روى عن السلطات الكامل إنه قام حماماً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وافق في ذلك السباط أموالاً باهظة (٤) . وتكرر ذلك في عهد السلطان العادل الصغير الذي أقام حماماً في اليبدان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلاً عن البقر والجاموس والإبل (٥) . ولكن هذه كلها كانت حالات فردية ، لا تدبر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة في الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية في القاهرة على عصرى الفاطميين

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٩٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى من ٤٠٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧ .

(٤) التويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .



والأيوبيين ، فإن الحقيقة الكبرى التي لا يرقى إليها شك هي أن القاهرة في عصر سلاطين المماليك شهدت ازدهار حلقاء، نشاطها الإجتماعي وغير الإجتماعي في العصور الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزوة مهددا بابتلاع مصر ووادي النيل . هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذي كان لا يزال رابضا على أرض الشام عند قيام سلطنة المماليك . ولكن المماليك استطاعوا في مستهل دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم كلما حدثتهم أن تقسم بعبور نهر الفرات لتهدد الشام . أما الخطر الصليبي فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك في مدى أربعين عاما من قيام دولتهم أن قوضوا أركان البناء الصليبي بالشام ، واستولوا على اللد والعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام سنة ١٢٩١ (١) .

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها في عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذي أحسوه في عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم في ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا أو موكبا ، لاستقبال سلطان وقد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين (٢) ، أو احتفال بشقاء سلطان من مرض ألم به (٣) ، أو إحياء لميسد أو لمناسبة دينية أو قومية (٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة في طريقه إلى سرحة الصيد أو ملعب الكرة أو شاطئ النيل طلبا للراحة وتنمير الهواء (٥) . وفي جميع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ١٣٨

(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤

(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ - ٨٧ .

هذه للناسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم أصحاب الحوانيت بتبييضها وتزيينها، وتصطف للناس في النساء في الدكاكين ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلمة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس في إقامة أقواس النصر — التي عرفت باسم القلاع — في الشوارع ، وفي الليلة السابقة للموكب يخرج الناس إلى الشوارع الرئيسية التي يمر بها موكب السلطان لاستئجار الأماكن التي يقضون بها الليل استعدادا للفرجة في اليوم التالي . وهكذا تقضى القاهرة ليلتها مضاءة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات للناس بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال (١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بعيد ديني أو قومي أو بموكب سلطان ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلي فهذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التي قد يصل عددها إلى ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال تشق شوارع القاهرة في موكب حافل إلى منزل الزوجية (٢) وهذا رجله شقي من مرضه فاتجه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التقوا حوله ابتهاجا بشفاؤه (٣) . وهذه منية شهيرة تنفي في مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المكان للاستمتاع بصوتها وغنائها (٤) .

على أنه إذا كانت الحياة الاجتماعية في القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها في المصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعي منا وقفة قصيرة لتفسير أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحياة الاجتماعية في أى مجتمع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٤١٨ .

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

إنما يتوقف على طبيعة هذا المجتمع وخاصة من ناحية حجمه وبنائه ومدى ثرائه .  
فإذا نظرنا إلى القاهرة في عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها  
قد استوفت جميع أركان النشاط الاجتماعي الحصب . فمن ناحية الحجم ، فافت القاهرة  
في عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العالم من حيث السعة وكثرة السكان .  
وحسبنا أن ابن بطوطة — وهو الرحالة الذي طاف بمعظم أركان العالم المعروف في  
القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلاد ) — وصف القاهرة بأنها « أم البلاد  
المتناهية في كثرة العمار ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط  
الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تسوج موج البحر  
بسكانها وتكد تضيق بهم على سعة مكانها (١) » وذكر جيهان تود الذي زار مصر  
سنة ١٥٢٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس (٢) ، في حين قال برنارد دي بريدنباخ  
أنه لا يعتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهي القاهرة في كثرة سكانها  
والساعها وعظمتها و ثروتها ، وأن جميع سكان إيطاليا لا يظاهون في الكثرة  
القاهرة وحدها (٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة في ذلك العصر ، فكانت غالبية سكانها من المواطنين  
ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعمامة من المسلمين وأهل الذمة  
سواء ولكن امتازت القاهرة في عصر سلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك —  
وهم الطبقة الحاكمة السائدة في البلاد — ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا  
كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر  
من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(2) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, 8. 4.

(3) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية فى عصر سلاطين المماليك ، بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب فى ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقي طريق مصر والبحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها فى مجتمع القاهرة فى ذلك العصر (١) .

وكان أن اكتظفت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين المماليك بتجميل عاصمتهم وكنس شوارعها ورشها بالمياه منعا لإثارة الأتربة (٢) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل إطفاء ما يحدث من الحرائق (٣) واختص المشاعلية بأسريرة البيوت والحمامات وخزاناتها فقاموا على نزعها وتنظيفها بين حين وآخر (٤) . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبقوق — بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، واندروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل (٥) . وهذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فامروا بامسكها وتغيبها بعيدا خارج المدينة (٦) .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٨٤ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٣) المقرئى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .

(٥) تاريخ ابن القرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ

(٦) ابن حجر : أنباء الفجر ، ج ٦ ص ١٢٥ .

وهكذا رأت القاهرة مجتمعا صاخبا في عصر سلاطين المماليك ، فبالإضافة إلى الاحتفالات وللواكب العديدة التي سبق ذكرها ، اتصفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، وأحباب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة في رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعة ليسمعهم الراغبون في قص الشعر والزينة<sup>(١)</sup> . هذا عدا اللارة من النساء اللاتي تمتعن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات الطوال بتناقل أخبار البيوت وأسرار العائلات<sup>(٢)</sup> . يضاف إلى ذلك كله كثرة الدواب ، فالخيل اللطيفة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابهم للزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق للزحمة وهم يضربون الناس عنقه ويمرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين إذا سقط بعض اللارة تحت حوافر خيولهم<sup>(٣)</sup> والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامتدادها بما يحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوى للنربي هذه الجمال في القاهرة في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بمائتي ألف جمل<sup>(٤)</sup> . أما السقاءون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا أسماءهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل السماح لهم بالتجارة في ماء النيل<sup>(٥)</sup> ، أما الخمر فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت في القاهرة عصر المماليك بدور سيارات الأجرة ، فعفى أصحابها برصمها وتطعيمها ، وقدر ابن بطوطة

(١) Tafur : Travels, p. 101.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : للدخل ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) Schefer : Le Voyage d' Outremer, p. XXX III

(٤) رحلة البلوى المغربي ، ص ٥٥ .

(٥) Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144.

عدد للكارين في القاهرة ثلاثين ألف مكارى (١) .

وإذا كان أهل القاهرة في عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين (٢) ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء (٣) ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم (٤) فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح الريح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس عند أهل القاهرة في عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق وللتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها (٥) . وكان نهر النيل دائما ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة في فصل الصيف (٦) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية (٧) هذا كله فضلا عن الألعاب التي تلهى بها الناس والتي اتخذ بعضها طابع للتمارة ، مثل تطيير الحمام وللناطحة وبالكباش وللناقرة بالديوك فيراهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الديوك ، فإذا ما زكسب الرهان (٨) كذلك عرفت

- 
- (١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .
  - (٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٤٠١ .
  - (٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .
  - (٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .
  - (٥) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .
  - (٦) ابن الحاج : المدخل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .
  - (٧) ابن أبياس : بدائم الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .
  - (٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

القاهرة في ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يعبلون بالديبة والقرادة الذين يلعبون بالقرود<sup>(١)</sup> . وهكذا اكتسبت القاهرة في ذلك العصر شهرة واسعة في اللهو والترح ، حتى أن الناصر ابن صاحب اليمن عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصنائع والسائر وأرباب الملاهي<sup>(٢)</sup> » .

على أن حب أهل القاهرة للروح واللهو لم يقلل أبدا من السعة الدينية الواضحة التي انصفت بها القاهرة ومجتمعها في عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة في ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد على أيدي التتار ، الأمر الذي جعل القاهرة محورا لنشاط ديني فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية اضخمه مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها<sup>(٣)</sup> وترجع أفخر العمار الإسلامية التي تزدهر بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالذات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذا وجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى ولتدين وباطنه الانتم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلا عن روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقية مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتماطي الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن موجه الانحلال الخلقي سادت بقية البلاد الإسلامية في تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

---

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣

وما بعدها .

نرى أن المماليك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية في القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برفوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء ، لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسان لعمل الفاحشه فيهم<sup>(١)</sup> » ويعبر المقرئى فى مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « نفى فى أهل الدولة محبة الذكران » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المماليك بالذات<sup>(٢)</sup> أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، وعبر عن ذلك المقرئى بقوله « فشت هذه الشجرة الحبيثة فى وقتنا هذا فشوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوها كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام<sup>(٣)</sup> » واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش فى ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق<sup>(٤)</sup> . ولم تكن الخمر أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك . وقد ابتكر بعض أمراء المماليك أنواعا مستحدثة من الخمر نسبت إليهم مثل التمر بناوى نسبة إلى الأمير تمرينا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف فى عصر المماليك نبيذ القمع ويعمل من لبن الخيل . وقيل عن السلطان فرج بن برفوق أنه كان أحيانا يشق عوارق القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر<sup>(٥)</sup> ! وكان من الطبيعي أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين فى القاهرة ، حتى أصبحت الخمر

(١) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) المقرئى : ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الفهرج ١ ص ٣٨١

(٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الفهرج ٢ ص ٢٧ .



متمة للنمائي في الحفلات والأفراح<sup>(١)</sup> . وكذلك انتشر البناء في القاهرة على عصر  
سلاطين المماليك ، حتى وقفت البناء بالأسواق تحت أعين المارة ، واعترفت به  
الدولة ففرضت عليهم ضرائب مقررة<sup>(٢)</sup> .

لا شك في أن نشوء هذه الأمراض وغيرها في مجتمع القاهرة على عصر سلاطين  
المماليك إنما كان نتيجة طبيعية لاكتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود  
نسبة كبيرة من الأعراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالإشراف  
عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة المناجاة التي هبطت على ذلك المجتمع والتي اعتبرها  
ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات<sup>(٣)</sup> .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع  
الذي عبر عنه السيوطي في عصر المماليك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط  
رجال الفضلاء »<sup>(٤)</sup> .

دكتور

سميد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسي تاريخ المصور الوسطى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

---

(١) القرينى : السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) القرينى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٤) السيوطي : حسن المعاصرة ج ٢ ص ٨٦ .

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function  $f(x)$  defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$
for  $x \in \mathbb{R}$ . It is shown that  $f(x)$  is an odd function, i.e.,  $f(-x) = -f(x)$ , and that it is strictly increasing on  $\mathbb{R}$ . Moreover, it is proved that  $f(x)$  is concave down for  $x > 0$  and concave up for  $x < 0$ .

2. In the second part, we consider the function  $g(x)$  defined by the equation

$$g(x) = \int_0^x \frac{t}{1+t^2} dt$$
for  $x \in \mathbb{R}$ . It is shown that  $g(x)$  is an even function, i.e.,  $g(-x) = g(x)$ , and that it is strictly increasing on  $\mathbb{R}$ . Moreover, it is proved that  $g(x)$  is concave up for  $x > 0$  and concave down for  $x < 0$ .

3. Finally, we consider the function  $h(x)$  defined by the equation

$$h(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^4} dt$$
for  $x \in \mathbb{R}$ . It is shown that  $h(x)$  is an odd function, i.e.,  $h(-x) = -h(x)$ , and that it is strictly increasing on  $\mathbb{R}$ . Moreover, it is proved that  $h(x)$  is concave down for  $x > 0$  and concave up for  $x < 0$ .